

البعد الأمازيغي والثقافي لاحتفاليات الناير بمنطقة بني سنوس دراسة من خلال الكتابات المحلية والأجنبية

إبراهيم الهلالي جامعة تلمسان

brahimhelali83@gmail.com

تاريخ القبول: 2018/03/18

تاريخ الارسال: 2018/03/14

الملخص:

لقد كانت احتفالات "الناير" بمنطقة بني سنوس، ولا زالت موضوع إلهام وإبداع وتساؤل فكري، تجلت من خلال تمثيلاتها في مجالات مختلفة، فاقترن الناير بالتاريخ المشترك لمناطق الجزائر عامة، وأساسا التاريخ الأمازيغي، وعن أصل سكان المنطقة ومدى تعلقهم بهذه الاحتفاليات، أي احتفالات "آيراد" والعادات والطقوس التي تجري عادة في الأيام التي تلي الناير، إنه نسق طقوسي شديد التعقيد وموغل في القدم، لا يزال ممارسا في مناطق كثيرة من بني سنوس، وفيه تتجلى الصلة الوثيقة بين الوسط الطبيعي والإنسان السنوسي.

الكلمات المفتاحية: الاحتفالات، آيراد، الأمازيغية، الثقافة، الهوية، بني سنوس.

Abstract:

Yennayer was celebrated in the region of Beni Senus, and is still the subject of inspiration, creativity and intellectual question. It was manifested in its representation in various fields. So, yennayer was associated with common history of algerian regions, especially the amazigh history and the population's origin of this region with their attachment to these celebrations of (Ayrad), customs and rites that usually take place in the days following yennayer. It is a very complex and immemorial ritualist mode, and it is still practiced in many parts of beni snous, where the close connection between the natural environment and the Senusi man is evident.

Key words: celebrations, ayrad, the Amazigh, culture, identity, Beni snous.

تقديم:

لقد شكل الإنسان دوما الحلقة الأساس في فلك المعارف التي تبحث في الإنسان من حيث هو وجود / كيان تحكمه توجهات سلوكية واعتقادية ذات مرجعيات اجتماعية وثقافية، فالسلوك الإنساني خاضع لتأطير داخلي نابع من ذات الإنسان وآخر خارجي تبسطه قيم وجود الإنسان / الفرد داخل الجماعة.

وتعدّ الحياة الاجتماعية في أي مجتمع، نسيجاً متكاملاً من الأفكار والنظم والسلوكيات التي لا يجوز الفصل فيما بينها، باعتبارها تشكّل التركيبة الثقافية في المجتمع، وإلى درجة تحدّد مستوى تطوّره الحضاري. ومن ثم تكون المنظومة الاجتماعية خاضعة للمدونة الثقافية، باعتبارها معطى وإفرازا لما هو متجذر في هذه المدونة وتكون

الإفرازات الثقافية كالمسرح والفن عموما، والأدب بمثابة تعبير عما هو متربك في الجماعة من قيم معاملاقي وسلوكي، وتوجهات اعتقادية / إيمانية سواء كانت دينية أو أسطورية .

إن دراسة احتفالية الناير عامة، وتظاهرة "آيراد" سوسيو- ثقافيا، واكتشاف الخبايا والموضوعات السائدة، المعبرة عن هموم وأفكار المجتمع؛ كانت هي الأخرى منطلقا ذاتيا لتجربة الحفر في الذاكرة الجمعية للمنطقة ومنجزاتها الفنية. فالاحتفال بميلاد السنة الأمازيغية يختلف بولاية تلمسان ونواحيها لمدى تلك الخصوصية التي تطبع هذه الاحتفالات، والتي غالبا ما تكون منطقة بني سنوس الواقعة على بعد 40 كلم من الجنوب الغربي لعاصمة الولاية مسرحا لهذه الاحتفالات والتي تتميز بتظاهرة "إيراد".

حافظت منطقة بني سنوس بشكل بارز على تراثها كما هو الشأن لمعظم مناطق الغرب الجزائري، حيث لا تزال بعض المؤشرات، والعادات والتقاليد ومظاهر الثقافة الشعبية تتعايش مع غزو الثقافات الوافدة عبر الوسائل الإعلامية المختلفة، ولم تذب كافة ولم تتقلص، فظلت محافظة على خصوصياتها الحضارية، ومن أهم العناصر الثقافية الشعبية التي عرفتها المنطقة تمسكها بعاداتها وتقاليدها كالنفقة والمولد النبوي الشريف (سيد المولود) وعارفة والوعدة، والناير، والاحتفال برأس السنة الأمازيغية، والمتمثل في تظاهرة (آيراد).

ولكن قبل الخوض في هذه الدراسة، يجب طرح التساؤلات التالية: ما أصل بني سنوس؟ ومن هم أهلها الأصليون؟ وماذا بقي منها اليوم من قرى؟ وكيف استطاعت بعض القرى وسكانها الحفاظ على احتفاليات الناير عامة وتظاهرة آيراد بصفة خاصة؟

1) أصل السكان وموطنهم:

يعود أصل سكان منطقة بني سنوس إلى البربر، المنتمين إلى قبيلة زناته الكبرى التي استوطنت في عصر الممالك البربرية إقليم تلمسان كله تقريبا فاختلقت الآراء و تضارب آراء المؤرخين، رغم اتفاقهم حول القبيلة الأم التي ينتمي إليها السنوسيون وحول القبيلة الفرعية التي انحدر منها هؤلاء، يرى البعض أن سكان بني سنوس ينحدرون من قبيلة بني حبيب، ويعللون ذلك بوجود آثار إقامتهم في المنطقة ويحفظ ذكراهم من طرف الأساطير¹.

ولما كانت هذه القبيلة قد استوطنت بني سنوس في القرن الثامن الميلادي وكانت قبيلة بن يفرن التي يذكرها النسابة باسم بني يفري بني صلتين، قد استوطنت المنطقة قبلهم فيرى البعض الآخر أن سكان منطقة بني سنوس ينتمون إلى هذه الأخيرة. فقد كان بنو يفرن في عهد الفتح الإسلامي، منتشرين في افريقية، والمغرب الأوسط، ثم انتشروا في الناحية الغربية لبلاد المغرب.²

ويشكك ألفرد بل في هذا النسب قائلا " أن يكون هؤلاء البربر الذين يسكنون اليوم وادي تافنة والخميس من قبيلة بني حبيب... فإن ذلك مالا نستطيع الجزم". مرجحا ما ذكره ابن خلدون عن بني سنوس، إحدى بطون كوميه، ولهم ولاء في بني كمي (الجماعة التي ينتسب إليها عبد المؤمن بن علي المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين). ولما فصل بنو كمي إلى المغرب (في عصر الموحدين، القرن الثاني عشر).³

إن هذا النسب إلى القبائل المختلفة في مراحل تاريخية مختلفة، لا يستبعد احتمال أن تكون هذه القبائل بعضها بطن من بعض، فينسب بني يفرن ليصلتين، وكوميه لبني يفرن وبني حبيب لكوميه، وبني سنوس لبني حبيب، بهذا القدر من القرابة أو ذاك، ومهما يكن من أمر فإن الذي لا جدال فيه هو أن سكان بني سنوس يرجعون في نسبهم العام إلى قبيلة زناتة وهو ما لا يكتفه اختلاف النسابة والمؤرخين.⁴

وكانت منطقة بني سنوس محل أنظار الاستعمار منذ القدم، نظرا لموقعها الآمن وأهميتها الإستراتيجية، وطبيعتها الجميلة، زد على ذلك كونها منطقة حدودية ومركز نشاط هام بين المغرب الأقصى والجزائر، ولهذا فإن بني سنوس عرفت الاحتلال الروماني.⁵

هذا الاحتلال الذي مازالت آثاره باقية بالمنطقة، كما هي الحال بالنسبة للجزء الأعلى لوادي تافنة بقرية تافسة وفوق الجبل الموجود على يمين قرية بني عشير وبني زيداز، حيث توجد الآثار المعروفة إلى يومنا هذا بـ"قعدة الصور". وإذا كان بعض المؤرخين الفرنسيين ينسبونهم إلى البربر لا إلى الرومان، بعض الآثار التاريخية الموجودة بالمنطقة مثل: أسوار كدية النصرى أو برج الرومان، غار النصرى، قعدة الصور، أوقرن العسة، أو تافليعت فإنهم لا ينكرون مع ذلك أن يكون الرومان قد شيدوا في هذه المناطق بعض الأبراج العسكرية للمراقبة، أو كانت لهم بعض الاستثمارات لاستخراج زيت الزيتون.

وذلك ما أكدته ماك كارثي، حيث لا يستبعد أبدا أن يكون الرومان قد سلكوا نفس السبيل التي سلكتها بعدهم فرنسا، استوطنتها الرومان، واستوطنوا في منطقة تلمسان نفس الأماكن التي استوطنتها الرومان رغم اهتمامهم بالأماكن الموجودة في مصبات الأنهار، أكثر من تلك الموجودة في منابعها وأجزائها العليا.⁶

ولا شك أن الذين هاجروا من الجزيرة العربية إلى شمال إفريقيا من الفتيقيين، وهم الآخرون استوطنوا منطقة بني سنوس، وذلك للأسباب الطبيعية نفسها وهم الذين علموا البربر بمن فيهم سكان بني سنوس الأصليين: الزراعة، والاعتناء بشجرة الزيتون (التي كانت موجودة كشجرة وحشية)، وكيفية استخراج الزيت منها، كما علموهم زراعة التينة، والكرمة، والرمان وفن زراعة الأشجار المثمرة عموما، كذلك أخذ السنوسيون عنهم الصناعات القابلة للتصدير كالصناعات الفخارية، وصناعة المعادن والنسيج والمجوهرات.⁷

لقد اعتنق سكان بني سنوس الإسلام على يد السلطان إدريس الأول، الذي غزا المغرب الأقصى والمغرب الأوسط عام مئة وثلاثة وسبعين للهجرة، وهو ما يشير إليه عبد الله التنسي بقوله: " فلما استوثق له الملك وتمت دعوته، زحف إلى البرابر الذين كانوا بالمغرب كفارا، فأسلموا على يديه طوعا وكرها فافتتح "تامسنا" و"تادلا" و"شالة"، ثم زحف في سنة ثلاث وسبعين إلى تلمسان، وبها أميرها محمد بن خزر المغراوي، فخرج إليه مبايعا مطيعا فأمنه و أبقاه أميرا بتلمسان ورجع إلى مدينة و ليلي".⁸

وجاء المنطقة ضمن الهجرات اللاحقة للإسلام عدة قبائل معظمها من فيقيق واستقرت في ضواحي "الخميس" ومن هؤلاء على ما يبدو كثير من الأسر بأولاد عربي، وبني عشير، وهم يقلدون فيقيق مدينتهم الأصلية، التي فيها "أولاد علي" أو "موسى" المستقرون بقرية الكاف.⁹

والدليل على أن بعض سكان بني سنوس كانت مدينة فيقيق أصلا لهم، هو احتواء لهجة بني سنوس البربرية على كلمات خاصة بسكان فيقيق، من جهة ومن جهة أخرى، وجود بعض الأعراف القديمة التي لا توجد على امتداد التل إلا لدى سكان بني سنوس، وقد أمكنت ملاحظتها في فيقيق أيضا.¹⁰

ولقد أسهمت بني سنوس مع مناطق الجنوب الغربي، والشمال الغربي لتلمسان ومناطق الشمال الشرقي والجنوب الشرقي للمغرب الأقصى، إسهاما بارزا في الحركات المذهبية السياسية منذ حركة الأدارسة على الأقل، و إلى غاية سقوط الدولة الزيانية، على أن هناك من يرى أنهم لعبوا بعض الدور حتى في الحركة الخارجية الصفيرية والإباضية الأمر الذي يجعل محتملا إسلام سكان بني سنوس قبل مقدم إدريس الأول إليها، أمرا محتملا خلافا ما ذهب إليه ألفرد بل، بأن إرساء قواعد الإسلام بصورة نهائية في بلد بني سنوس، كان بعد بسط المرابطين سيطرتهم على تلمسان والتي بها يبدأ تاريخ تلمسان الحالية.¹¹

عرفت المنطقة الإسلام منذ بداية انتشاره في الشمال الإفريقي وانظم سكان بني سنوس إلى دعوات الفرق كلها، و لعبوا دوراً بارزاً في نشاطها السياسي والعسكري، وكما ساهموا في دعوة المرابطين وهبوا إلى مناصرتهم اقتناعاً بالتغيير الذي يمكن لها أن تحدثه إصلاحا لفساد الفرق السابقة، انضموا بعد ذلك إلى الموحدين وأحسنوا تأييدهم. فلقد التحق سكان بني سنوس بالموحدين منذ سنة خمس مائة وسبعة وثمانين للهجرة، (الموافق لألف ومئة وسبعة وتسعين للميلاد)، استجابة لنداء الإصلاح الديني الذي تزعمه ابن تومرت ومن بعده عبد المؤمن بن علي.¹²

البعد الأمازيغي لاحتفال الناير بمنطقة بني سنوس :

إن سياسات ومآرب العولمة في المجال الثقافي التي تستهدف الهويات القومية ومقوماتها الرئيسية، اللغة والدين والسمات التاريخية وأنماط العيش والسلوك والعادات و التقاليد ومعطيات الاختلاف والتمايز بين المجتمعات تضعنا أمام مسؤولياتنا المادية والمعنوية والروحية والجوهرية في الحياة البشرية.¹³

وبحكم انتمائنا الإسلامي العربي الأمازيغي، نرى أن ثقافتنا الإسلامية، العربية الأمازيغية تتعرض منذ زمن لقوى التقييد والتحديد من جهة وقوى التجديد والتحديث من جهة ثانية وقوى الترويض والتهميش من جهة ثالثة ففي علاقة الثقافة العربية (العربية الأمازيغية) بالماضي، نراها في الغالب تغالي في عرضه وتفسيره وتمجيده حيناً وتقع أسيرة لقيوده ومحدداته، وإخفاقاته حيناً ثانياً، وتنهل منه دون تجديد أو إبداع أو تطوير حيناً ثالثاً.¹⁴

أما فيما يتعلق بعلاقتها بالحاضر والمستقبل، وما يرافقها من قوى العولمة وتأثيراتها فهي تتعامل معها بالغالب بإبداعات، وانطلاقات يانعة الفروع ضعيفة الجذور، ورغم كل هذا فإن الأعمال والنتاجات الثقافية المبدعة، لا يقلل من أهميتها أحد وحتى وإن لم تنجح بدورها في بناء الزخم المناسب وإيجاد الكتلة الحرجة اللازمة، لتشكيل الفضاء الثقافي المترابط والتي لم تؤد حتى الآن الانطلاقة اللازمة لإحداث التأثير المنشود والتغيير المستهدف، وهو التغيير الذي يرتبط بالانفتاح الواعي والتفاعل الإيجابي والانطلاقة الواثقة دون الانقطاع عن الجذور والتنازل عن الهوية والخصوصية.¹⁵

إن لكل شعب أسلوبه في الفرجة وطبيعته في المشاركة والاستمتاع، ولكل شعب في تراثه ما يحركه ويثير مكان من نفسه، والظاهرة المستقاة في بحثنا هذا المتمثلة في ظاهرة آيراد والتي تعد من الظواهر الفريدة التي لا نجدها إلا في بعض القرى بمنطقة بني سنوس، وهي بدورها أقدم العادات وأبرزها، والتي تمكنت من نسج علاقات خدمت الممارسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وممارسات الفرجة الفنية.

وهي لا تعد تراثاً ثقافياً غير مادي فحسب، إنما تعكس امتداداً تدريجياً لمفهوم التراث الثقافي الذي يتزايد فهمه باعتباره يشمل لا التغيرات المادية عن ثقافات العالم المتنوعة فحسب، بل كذلك تجلياتها غير المادية، بما في ذلك التقاليد الشفهية وفنون الأداء والمعارف.

أ) المنطوق الأمازيغي:

يعد التعدد اللهجي ظاهرة تخص جميع لغات العالم فلكل لغة رسمية لهجات تتفرع منها، فهي إذن الحالة التي تميّز الأفراد والمجتمعات التي تستعمل أكثر من لهجتين داخل نفس البلد، والفرق بين التعددية اللغوية اللهجية،

فالأولى تعالج التداخل البنوي بين أنظمة لسانية مختلفة، أما الثانية تهتم بالتغيرات الصوتية، والمعجمية للغة الواحدة.¹⁶

أما بالنسبة لسكان بني سنوس، فهم يتقنون العربية، رغم تمسكهم بالتقاليد وعادات أمازيغية وأسماء القرى والأماكن والجبال، بالإضافة إلى الأمازيغية التي كان يتحدث بها سكان القرى التالية: بني زدار، بني عشير، أولاد عربي ومارز، الكاف وبوخلو. وهي تتكون من عدة لهجات متداخلة، فلهجة القادمين من سوس أو من القبائل تعتبر عند بني سنوس غير مفهومة، والعكس مع الذين قدموا من فقيق، بني إزناسن، وآزكري، فهم يتحاورون فيما بينهم دون إيجاد صعوبة كبيرة، أما لهجة بني بوسعيد فهي التي تقرب كثيراً منطوق بني سنوس حيث أن سكان المنطقتين يتحدثون مع بعضهم البعض بسهولة تامة.¹⁷

ولكن الأمازيغية عند السنوسيين في الوقت الحالي فهي في طريق الاندثار حيث نجد بعض الألفاظ والعبارات إلا عند الشيوخ والنساء، ونجد بعض هذه الألفاظ مستعملة في اللهجة الأمازيغية الرسمية الحالية. مثل: أمان(aman) وهو الماء، أيسوم(aysoum) وهو اللحم، وأغروم(aroum) أي الخبز، وبعض أسماء الأماكن و الجبال: تافنت، تاقلعت، مزوغن، أجدير، تيمقرست، تيطاوين وتيصافين وتغانيمت...

تتميز منطقة العزايل عن النواحي الأخرى لمنطقة بني سنوس من حيث منطوقها، وهذا يظهر في نطق بعض الأصوات بطريقة متميزة، حيث أنهم يضربون بطرف اللسان اللثة العليا، أما البقية يركزون بنفس اللثة على اللسان دون بذل جهد كبير، فالمجموعة الأولى تنطق (TSA) والمجموعة الثانية تنطق (TA).¹⁸

ب) النايير:

تأخذ كلمة النايير(ينايير) قسمين: ين وأيون، وتعني شهرا من أشهر السنة البربرية الأمازيغية، والذي يعتبر مباركا لكثرة الغطاء الطبيعي فيه، وهو الشهر الأول من السنة الأمازيغية، و يشير إلى اسم اليوم الأول الموافق لـ 12 جانفي من السنة الغريغورية.

تحتفل بني سنوس بثلاثة مواعد لإحياء ثلاث غرر لسنوات جديدة: فالاحتفال بالسنة الهجرية في أول محرم(التقويم الهجري)، والاحتفال بالسنة الميلادية الذي يوافق 01 جانفي (التقويم الغريغوري)، ثم الاحتفال بغرة السنة البربرية(النايير) في 12 جانفي (التقويم البربري).¹⁹ فسنة: 2018 ميلادية، توافق سنة 1439 هجرية، و توافق 2968 بربرية، إن التقويم الأمازيغي تقويم مبني على التقويم الشمسي، عكس التقويم العربي المبني على التاريخ القمري، ويمتد التقويم البربري على مدى إثني عشر شهرا مجزأة إلى فترات تختلف حسب الظروف المناخية، وكذا الغطاء النباتي الطبيعي الذي يكسو الأرض.²⁰

الناير هو عمود السنة أو بابها وهو اليوم الذي يرمز إلى الفصل بين مرحلتين:

مرحلة الليالي السوداء (الليالي الكوحل)، وهي مرحلة الصقيع والجمود والجوع، ومرحلة الليالي البيضاء (الليالي البويض) وهي مرحلة الجو المعتدل والجميل، ومن الأقوال المأثورة في الناير:²¹

إِذَا جَاكَ النَّايِرُ ارْمِي لَفْتَكَ مَعَ الْخَدَايِرِ²²

وقولهم كذلك:

فالنَّايِرُ اقْلَعِ اللَّفْتَ وَاغْرُسِ الْبَحَايِرِ²³

ج) الاحتفال برأس السنة الأمازيغية (آيراد):

تعود حكاية رأس السنة الأمازيغية إلى يوم انتصار الملك الأمازيغي شيشناق²⁴ على الملك رمسيس الثالث من أسرة الفراعنة عام 950 قبل الميلاد، وعندما عزم الملك رمسيس على احتلال شمال إفريقيا، و- حسب اعتقاد الأمازيغ- أن المعركة دارت رحاها في منطقة بني سنوس، بأحد المرتفعات الجبلية بين قريتي: بني زداز، وبني عشير (جبل فرعون) حيث تحتفل جميع قرى المنطقة وتقيم سنويا كرنفال (آيراد) في الفترة الممتدة من الثالث عشر يناير من كل سنة وتعني كلمة آيراد، الأسد ربما مقارنة قوة ملكهم شيشناق وسلطانه بسلطان الغابة الأسد.²⁵

ففي كل مساء وطيلة أسبوع كامل وبعد صلاة العشاء ترى فوجا مؤلفا من خمسة عشر شابا، مختلفة أعمارهم يتنكرون في هياكل تمثل حيوانات من أسد ولبؤة وأشبال، فيمثل أكبرهم سنا الأسد وهو الذي يتولى قيادة المجموعة فيتنكرون بما يرتدونه من ألبسة بالية وأغلبها جلود الكباش أو الماعز ملتحين لحية مصطنعة طويلة بيضاء للناظرين، وحول رقابهم سبحة طويلة من أصداف الحلزون الجوفاء تحدث حسيسا متميزا إذا ما تحركوا، أو رقصوا أو غنوا أمام كل منزل، تحت أضواء مشاعل عظيمة من البوص (وهي قصبة تنبت وسط نبتة معروفة في الناحية تسمى الديس)، وأينما حلوا فأطفال القرية يلتفون حولهم وهم يرددون على أهازيجهم بأهازيج أخرى، وبعد كل مشهد يتبرع عليهم السكان بهدايا من الحلوى والجوز واللوز والتين الجاف والتريد، الذي يعد خصيصا لمناسبة "الناير".²⁶

ويتزامن مع تنظيم هذا الاحتفال تنظيم السوق الأسبوعية والتي تباع بها مختلف الأنواع من الفواكه الجافة، والتي ذكرناها آنفا، وتتلأ هذه الفواكه في أكياس تعرف عند السكان المحليين بالمزود (زودة).²⁷، وتقوم ربات البيوت بتحضير عدة مأكولات شعبية للمناسبة: الثريد والمسمن وخرينقو، ويتم بالمناسبة تحضير الشرشم وهو قمح مهشم، وكذلك الكسكس والبركوكس، ويشترط في تحضير هذه الأطباق أن تطهى على نار الحطب وفي أواني من الطين.²⁸

تكون بيوت أهل بني سنوس طيلة ثلاثة أيام أبوابا مفتوحة للضيافة والاطلاع على تقاليد المنطقة، حيث تعرض النسوة خلال هذه الفترة مصنوعاتهن وحرفهن التقليدية كصناعة الحصير و الزرابين، وتعطي قبائل بني سنوس للاحتفال بأيراد أهمية بالغة، تصل إلى حد تهميش كل من لا يحتفل بهذه الشعيرة التقليدية ولا يعطيها حقها، حيث أن هذا الاحتفال يعد أحد مقومات قبائل بني سنوس.²⁹

3) البعد الثقافي والتراثي لاحتفال النابر بمنطقة بني سنوس :

هناك من الباحثين من اهتم بتقسيم المجتمعات الريفية إلى مناطق ثقافية، لكل منها خصائص واضحة ومتميزة حيث تتميز بتجانسها الداخلي بالنسبة لسمة معينة أو أكثر، يفرقها عن غيرها من المناطق الأخرى ، والواقع أنه مهما اجتهدنا في وضع سمات معينة لمنطقة ريفية ما عن غيرها من المناطق الأخرى فإنه لا يمكن أن نغفل وجود سمات عامة مشتركة.³⁰

أما بالنسبة لاحتفالات النابر في بني سنوس، يلعب النابر الذي هو أول شهر من السنة اليوليو سية (14 جانفي/ 13 فيفري من السنة الغريغورية) دورا كبيرا لدى سكان بني سنوس، ففي نفس الوقت يحدد رأس السنة البدايتين: بداية النصف الثاني للشتاء (حسب التقويم الزراعي) وبداية المرحلة الثانية لليالي السود.³¹

بدأ الاحتفال بالنابر -حسب ادموند ديستان- في العصور الوثنية قبل الميلاد، بعد اختلاط البرابرة بالفينيقيين في العهد القرطاجي وكانت ديانتهم الوثنية، ثم اعتنقوا في العصر الروماني الديانة النصرانية ودخلوا الإسلام بعد الفتوحات، لكن رغم ذلك علفت في ذاكرتهم عادات ألفوا معارفها، لأنها ارتبطت بموروثهم التاريخي كالاحتفال بحلول السنة البربرية الجديدة.³²

أ) احتفالات "شاخ" في قريتي الثلاثا ويني عشير:

في "الثلاثا" التابعة لقبيلة العزايل يوجد شاخ لقرية الجعالين و شاخ لقرية المغانين، فالشاخ شخصية طريفة خصوصا فيما يخص هندامه الغريب: قطع من حصر الحلفاء مثبتة إلى الجسم بواسطة حبال خشنة من الحلفاء، أساور وقلائد من قوقع الحلزون تطنطن لدى كل خطوة يخطوها.

يريد شاخ أن يصور الإنسان الذي بلغ أقصى حد من الشيخوخة المقوس الظهر تحت ثقل السنين، يظهر بمظهر رسمي وهو يحمل عصا طويلة، ويتجول في شوارع القرية الملتوية يقود أمامه حماره، وهو كذلك إنسان متنكر في شكل حمار، يمشي على أربع أرجل ويحمل على ظهره خرجا فارغا.³³

منذ الصباح الباكر يجوب الموكب الذي يرافق شاخ القرية في كل الاتجاهات، ذاهبا من دار إلى أخرى يجمع نصيب الطلبة من " السفنج " والبيض والفواكه الجافة التي تملأ شيئا فشيئا عدليتي الشواري (الخرج)، يدق شاخ على كل باب مغلق فإذا سمع الجواب، فإن الباب يدفع (على عجل) من طرف أفراد مرجين جسورين، مختارين خصيصا لهذه المهمة من بين شباب القرية، وسرعان ما يؤم الموكب فناء الدار: لا يخرج منها شاخ إلا بعد أن يشبع رغباته تماما ولا يكون ذلك دون أن يوزع بعض ضربات العصا على سكان المكان، ثم يتابع جولاته حتى يسقط الليل (ويطبق الظلام).

بعد ذلك يتوقف الموكب في المسجد، يقوم "الطلبة" بإجلاس شاخ وهو يتظاهر بالصلاة ثم يتلقى بدوره الضرب (من طرف الطلبة) ويكون بدوره محلاً للابتزاز، عندئذ يخلص الحمار من خرجه الممتلئ بالأشياء الطيبة أمام بشرى الحاضرين.³⁴

أما ما يحدث لدى بريري بني زيداز وبني عشير (من احتفالات) شيء أكثر غرابة، ففي ليلة رأس السنة عند منتصف الليل، يبدأ بالحركة من أعلى الجبل إلى أسفله، عدد هائل من النقط الضوئية، إنه تطواف حقيقي بالمشاعل: يذهب أفراد القرية، المشعل في اليد ليقدموا تمنياتهم بعيد سعيد للقدامى (قدماء الجماعة) الذين يستقبلونهم عند مدخل القرية، يتمنى الشيوخ لكل شاب مجيئا سعيدا، ويأخذ أحدهم المشعل من يد الزائر ويمرر اللهب تحت لحيته وفوق جلبابه (جلابيته) وبعد هذا الطقس (الذي يرى فيه البعض طقس تطهير)، يعبر الموكب دروب القرية الضيقة ثم تتفرق (عناصره).³⁵

وفي الغد يقع صراع غريب: يترشق (أفراد القرية) بالبصل البري (بصلة الذيب)، ويدافع كل متصارع (كما في الصراعات الجادة) بكل ما أوتي من قوة، وليس بعيدا (عن الاحتمال) أن يخرج هذا المشارك أو ذاك من الصراع مشحوج الوجنة أو راعف الأنف.

ومع بداية المساء يبدأ موكب آيراد، هناك رجال يرتدون جلود الحيوانات ويمثلون من بين عناصر الموكب "الأسد وهو يزأر مع لبؤته"، والثور والبقرة" و"الكبش والنعجة" إلخ، إن هذا الكرنفال الموضوع هو الآخر تحت حماية "الملك والملكة"، ينتهي بمأدبة كبيرة، متبوعة بابتهالات ودعاء بسقوط المطر، وبوفرة الخير أثناء جني المحصول والبركات الإلهية.³⁶

أليس هذا التطواف الغريب، في قرية لا يزال سكانها يتكلمون البربرية، بقية معتقدات سابقة للإسلام؟ وهذا التمثيل لحيوانات مختلفة، حيث يجمع في كل مرة بين عنصري الذكر والأنثى للفصائل، ألا يتضمن في حد ذاته رمز

الخصوبة التي يرحوها أفراد القرية للعام الجديد؟ ينبغي الإشارة إلى أن الملك والملكة مسنان، شخصان مقنعان على أساس أنهما كذلك.

يرى ادموند ديستان، أن الظاهرة مستوردة من الحضارة المصرية نتيجة مخالطة البربر، وذلك عن طريق التجارة البرية فنفس الظاهرة تقريباً موجودة عند قدامى المصريين، لكنها أدخلت ضمن إطارها الارتداء بعناصره الجديدة واحتفظت في نفس الوقت بجوهرها الأصلي، تتمثل هذه العناصر الجديدة فيما يلي:

- يكتفي بتلطيف وجهه بالجير والطين.
- يضع لحية من الصوف ويلبس رداء أحمر.
- يضع على رأسه قبعة طويلة.
- يرتدي أغصاناً خضراء من النخيل، ويبدأ التجوال في شوارع المدينة رفقة مجموعة من الأتباع، لأن فكرة الكرنفال عند هؤلاء ارتبطت في أذهانهم بالتجربة الغربية والفكر الغربي.³⁷

(ب) احتفالات شاخ في قريتي زهره وتافسرة:

إن فرص التسلية نادرة جداً لدى هؤلاء الفلاحين المعزولين في مداشرهم، لهذا فإنهم يغتنمون فرصة رأس السنة لكي يتسلوا: فالمعتقد الشائع لديهم هو أن الذي يقضي هذا اليوم مبتهجا سوف يتمتع بعام كله ارتياح. كما هو الحال في الثلاثا بالعزاييل، فإن الشخصية الرئيسية لهذه الاحتفالات ليست شيئاً آخر غير شاخ الشهير إنه يتمتع بنفس الصلاحيات، مثل جاره: جمع التبرعات للطلبة وتوزيع ضربات العصا وإمتاع المتفرجين بدعاباته يختلف تقنعه عن تقنع قريبه في الثلاثا بعض الشيء، بالنسبة إليه توضع بدل الحصر الحفاوية أغصان الشمار والخلتيت (البسباس والدرياس)، حيث أن اللون الأخضر الغامض يتفائل به كبشرى للخير، ويغطي رأسه بنفس الوسيلة: كسكاس بال مزين بنعلين من الحلفاء يمثلان الأذنين، ويحمل كذلك الأساور والقلائد التقليدية المصنوعة من قواقع الحلزون، يبدأ شاخ جولته عبر القرية، وهو يرتدي هكذا زياً مضحكاً وبجانبه عدة أفراد يحملون قففاً وخلفه حشد من الناس المرحين.³⁸

(ج) احتفالات آيراد بالخميس:

ويستمر التطواف البهيج، وتصيح هكذا من غروب الشمس إلى وقت متأخر من الليل، تلك الموجة البشرية العظيمة تتقدم في سراب نحو وسط القرية وتستمر لعبور عتبة أبواب المنازل التي لا يزال أصحابها مستيقظين لاستقبال والترحيب بآيراد، المنازل تنتظر بشغف وصول "القافلة المقنعة" التي تدخل الفرحة للمنازل بالغناء والرقص وإقامة طقوس الحفل، بمجرد أن يسمعو الأغاني المعلنة عن قدوم المقنعين:

"حلوا بيبانكم رانا جيناكم حلوا بيبانكم"

المقنعون يتراوح عددهم عموماً بين 5 و 7 أعضاء يرقصون يجنون في منتصف أفنية المنازل، وتحت إيقاع طبل الفنانين المرافقين، والحشد الذي يحفظ نشيده الطقسي، قائلين:
"آلعاب الدار حبا الجديد آلعاب الدار حبا الجديد"³⁹

و في حين جلسة، فشخصية اللبوة المقنعة في هيئة امرأة من حيث الصدر والأعضاء تسقط على الأرض أين يُشاهد الصمت التام من قبل الحشد، هذه النظرة الأخيرة هي بكل بساطة المشهد دون التجري على نطق الكلمة. في هذه اللحظة بالذات، الأسد يتوقف عن الرقص ويصبح ثائراً، غطرسته المهيمنة تؤدي إلى أخذ عصاه الطويلة المنحوتة جيداً، يبدأ بالمواء كأنه غول، يتظاهر كأنه يضرب المساعدين الذين يشكلون دائرة، إنه يتحرك ويحاول ترك مساحة أكبر في فناء المنزل.

فجأة تستيقظ اللبوة من كابوسها وتبدأ في الرقص على الفور، وتعال الهتافات المدوية التي تكسر سكون الليل:
"شاب لا لاك / شاب لا لاك / شاب لا لاك"

بمعنى: بالبطيء مع سيدتك، توقف مع سيدتك

إمشي مع سيدتك، (را) هي سيدتك.⁴⁰

في هذه اللحظة بالذات، الأطفال يبدون خائفين جداً يتعلقون بملابس أمهاتهم وجداتهم من كثرة رعبهم من المقنعين، ربة المنزل تدخل فوراً ودون انتظار إلى الغرفة لإعداد الطعام لفرقة التمثيل، مع الأطباق المختلفة التي أعدت لهذه المناسبة.⁴¹

وتقوم ربات البيوت بتحضير عدة مأكولات شعبية للمناسبة: الشريد والمسمن وخرينقو ويتم بالمناسبة تحضير الشرشم وهو قمح مهشم، وكذلك الكسكس والبركوكس، ويشترط في تحضير هذه الأطباق أن تطهى على نار الحطب وفي أواني من الطين، وتكون بيوت أهل بني سنوس طيلة ثلاثة أيام أبواباً مفتوحة للضيافة والاطلاع على تقاليد المنطقة، حيث تعرض النسوة خلال هذه الفترة مصنوعاتهن وحرفهن التقليدية كصناعة الحصير والزرابي.⁴²

خاتمة:

وختاماً لهذه الورقة البحثية ما يسعني إلا القول، إن دراسة احتفالية الناير بمنطقة بني سنوس يعد حتمية، لمراجعة التاريخ الأمازيغي لاحتفالية آيراد، وعن أصل السكان، والاحتفالات والعادات والطقوس، التي تجري عادة في الأيام التي تتلو الناير، وبالتالي يمكنني القول إنه نسق طقوسي شديد التعقيد وموغل في القدم، لا يزال ممارساً في عدة قرى من منطقة بني سنوس، فهذه المنطقة حافظت بشكل بارز على تراثها كما هو الشأن لمعظم مناطق

الغرب الجزائري، حيث لا تزال بعض المؤشرات، والعادات والتقاليد ومظاهر الثقافة الشعبية، تتعايش مع غزو الثقافات الوافدة عبر الوسائل الإعلامية المختلفة، ولم تذب كافة ولم تنقلص، فظلت محافظة على خصوصياتها الحضارية.

فالبحت وصفي، لما له من ذكر لخصائص ما هو كائن؛ أو تفسير ظروف وعلاقات قائمة بين وقائع أو ممارسات شائعة أو التعرف على معتقدات واتجاهات عند أفراد أو جماعات قبائل بني سنوس. فلقد قمت من خلال هذه الدراسة، بتحليل ظاهرة آيراد، وخصوصيتها، والوقوف على أبعادها وموضوعاتها، وكذا علاقاتها الداخلية (أوجه التشابه والاختلاف) في الاحتفالية بين قرى المنطقة.

هناك بعض الباحثين من يصنّفها ضمن الأساطير الأمازيغية، وهناك من يرى أنها غير مؤكدة، ويعتبرها آخرون أنها حادثة تاريخية مؤكدة، مستدلين على ذلك بوجود الشواهد التي تستدعي البحث الدقيق في أعلى الجبل، حيث يتطلب الأمر حفريات وأبحاث معمقة للكشف عن حقيقة بقايا المعسكر الذي تركز فيه جيش القائد شاشناق.

ورغم الأهمية القصوى التي تحتلها الاحتفالية الآيرادية في الحياة السنوسية، فإنها تبقى ظاهرة فنية ارتجالية تفتقر إلى النص ولا تقوم على التدوين، مثلها مثل باقي الفنون الشعبية الأخرى، وما يميّز به كرنفال "آيراد"، أنه يقام ليلا بمشاركة شباب يرتدون أقنعة الأسود، تخليدا للمعركة ويسير الشباب المتخفون في هيئة أسود مع فرقة فلكلورية. وبالتالي لا بد أن تكون لدى الدارسين والباحثين خطة استراتيجية لإنقاذ هذه الاحتفالية عامة وكرنفال آيراد بصفة خاصة، من خطر ومغبة النسيان والزوال، وإعادة دراستها وتحليلها، وقياسها وتفسيرها، كما تدرس حاضر الظاهرة وليس ماضيها، إذا أردنا بقاء هذا التراث بيننا، وحفاظا على الذاكرة الجمعية.

الهوامش والاحالات:

- 1 محمد حمداوي، البنيات الأسرية ومتطلباتها الوظيفية في منطقة بني سنوس، في النصف الأول من القرن العشرين (قرى العزرايل نموذجاً)، (مخطوط)، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، 2005 ص 130.
- 2 المرجع نفسه، ص 130.
- 3 ألفرد بل، بني سنوس و مساجدها في بداية القرن 20، تقديم وتعريب: محمد حمداوي وهران، دار الغرب للنشر والتوزيع، 2001، ص 51.
- أنظر: عبد الرحمان ابن خلدون "تاريخ ابن خلدون"، دار الكتب العلمية، المجلد السابع، بيروت، 1992، ص 134.
- 4 المرجع نفسه، ص 51/50.
- 5 المرجع نفسه، ص 51.

- 6 البنيات الأسرية ومتطلباتها الوظيفية في منطقة بني سنوس، المرجع السابق، ص 133.
- 7 المرجع نفسه، ص 133.
- 8 المرجع نفسه، ص 133. أنظر: أبو عبد الله التنيسي، "تاريخ دولة الأدراسة (من كتاب الدر و العقيان)" تحقيق و تقديم: عبد الحميد حاجيات، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1984 ص 35.
- 9 المرجع نفسه، ص 134.
- 10 المرجع نفسه، ص 134.
- 11 ألفرد بل، بني سنوس و مساجدها في بداية القرن 20، المرجع السابق، ص 97.
- 12 المرجع السابق، ص 134.
- 13 العربي بن داود، باية بوزغاية، إشكالية الهوية والعولمة الثقافية، عدد خاص الملتقى الدولي الأول حول: الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيو ثقافية في المجتمع الجزائري، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح – ورقلة، عدد خاص، (دت)، ص 517.
- 14 المرجع نفسه، ص 517.
- 15 المرجع نفسه، ص 520.
- 16 تيجيني بن عيسى، مدخل إلى علم اللهجات المقارن دراسة مقارنة للأصوات، لهجة تلمسان نموذجاً، (مخطوط)، أطروحة دكتوراه دولة في علم اللغة، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، ص 05.
- 17 أمينة ابن باجي، منطوق بني سنوس الأمازيغي، (مخطوط)، مذكرة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2008 – 2009، ص 51.
- 18 المرجع نفسه، ص 52.
- 19 عبد الكريم بن عيسى، الملامح المسرحية في احتفالية آيراد بمنطقة بني سنوس، (مخطوط) رسالة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2002/2003، ص 45.
- 20 المرجع نفسه، ص 46.
- 21 المرجع السابق، ص 46.
- 22 إرشاد فلاح، ينصح الفلاح بجني اللفت قبل الليالي البيضاء لأنها تفسد المنتج.
- 23 في شهر يناير أحفر اللفت وأزرع الأرض بالخضر الوجهة للاستهلاك في الصيف والخريف.
- 24 إن كلمة شقشاق تحول من اسم الملك البربري شاشناق الذي ينتمي إلى أصول بربرية، هاجر إلى ليبيا وسكن هناك وفي فترة تواجده هناك، احتدمت الحروب بين المجتمع الليبي والفرعوني المصري، في سنة 950 قبل الميلاد، فلقد جمع شاشناق القائد البربري أكثر من 7500 بربري من المجتمع الليبي آنذاك وحارب الجيوش المصرية التي تفوقه عدداً، وانتصر عليها نصراً ماكان في حسابان أحد، أنشأ الملك شاشناق أسرة حاكمة في مصر، واسمه حمل من طرف خمس ملوك مصريين من أصول إفريقية ينتمون للأسرتين الحاكمتين 22 و 23 بجنوب مصر، وذلك خلال السنوات الممتدة ما بين: 950/929 قبل الميلاد.
- أنظر:
- Ben hadji serra dj Mohammed, Les fates d'ennayer au Beni snous, in ibla 13 institut des belles lettres et arts, Tunis, 1951, p 35 / 56.
- 25 أمينة ابن باجي، المرجع السابق، ص 49.

- 26 محمد لمقامي، رجال الخفاء، (مذكرات ضابط في وزارة التسليح والاتصالات العامة) ترجمة: علي الريب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2005، ص 12/11.
- 27 عبد الكريم بن عيسى، المرجع السابق، ص 47.
- 28 أمينة ابن باجي، المرجع السابق، ص 50.
- 29 المرجع نفسه، ص 50.
- 30 محمد سعيدي، الأنثروبولوجيا بين النظرية والتطبيق، دراسة في مظاهر الثقافة الشعبية في الجزائر أطروحة دكتوراه في الأنثروبولوجيا، قسم الثقافة الشعبية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية جامعة تلمسان، 2006-2007 ص 183.
- 31 سكان بني سنوس، الذين هم جماعة الخميس البربرية، يضمون قبيلة العزايل، بني عشير، بني زيداز وأهل الخميس، وأهل الكاف، حيث أن العديد من القرى تتكلم البربرية.
- أنظر:
- Edmond D’Estaing , Etudes sur la dialecte berbère des Beni snous, paris, Lerous (sd)
- 32Edmond D’Estaing ,l’ennayer chez les Beni snous , la revue africaine , T491, 1^{er} trimestre, 1905, p 51- 70.
- 33 ادموند ديستان، محمد بن حاجي سراج، بني سنوس في النصف الاول من القرن العشرين (عناصر من الثقافة الشعبية)، تقديم وتعريب: محمد حمداوي، موفم للنشر، الجزائر، 2011 ص 66/65.
- 34 المرجع نفسه، ص 66.
- 35 المرجع نفسه، ص 67/66.
- 36 المرجع نفسه، ص 67.
- 37Edmond D’Estaing , ibid, p 57 .
- 38 ادموند ديستان، المرجع السابق، ص 86/85.
- 39 محمد سريج، تفاصيل كرنفال آيراد ببني سنوس، محاضرة حول النايير، متحف الفنون والتاريخ، تلمسان، 12 جانفي 2015.
- 40 المرجع نفسه.
- 41 ادموند ديستان، المرجع السابق، ص 65.
- 42 أمينة ابن باجي، المرجع السابق، ص 50.